بسم الله الرحمن الرحيم

بدعة إعادة القراءة

أصبحت بدعة «إعادة قراءة النص» أو «إعادة إنتاجه» لعبة مستمرأة لدى بعض الباحثين. ومورس على النصوص - من خلال هذه القراءات الجديدة المدعاة - من التحريف والتزوير وتشويه الحقائق والدلالات ما لا حصر له.

ذلك أن النص في هذه البدعة تتم قراءته بعيداً عن ملابسات إنتاجه، أو حياة مؤلفه، أو ظروف تكوينه. إنه يقطع قطعا تاما عن سياقه التاريخي والمعرفي، ويُفصل عن ظرفه الزماني والمكاني، حتى يبدو وكأنه قد نشأ من الفراغ.

يُصرف النص عن دلالاته الحقيقية، ويؤل تأويلاً قد ينقله من اليمين إلى اليسار، ومن اليسار إلى اليمين، ذلك أن معاني النص اللغوية، وتعبيره عن عصره وقائله يعد أمراً لا قيمة له، بل أمراً معرقلاً إذا لم يخدم تأويل الناقد.

وهكذا - بحجة موت المؤلف حيناً، ولا نهائية القراءات حيناً آخر - ضاعت حقيقة النص، ومورست لعبة التأويل إلى أبعد مدى، وغدت النصوص - مقدسة، وغير مقدسة- ألعوبة بيد القارئين، ورهينة اتجاهاتهم الفكرية والإيديولوجية.

يقول حسن حنفي في كتابه عن جمال الدين الأفغاني: «إن دراسته تعتمد على منهج إعادة القراءة، وإعادة إنتاج النص، ونقله من ظروف القرن الماضي إلى ظروف هذا القرن، تمثلاً للأفغاني وروح عمله...».

وأنا لا أدري كيف يكون قلع النص من تربته التي نما فيها، وعصره الذي وجد فيه، ثم زرعه بعد ذلك في تربة أخرى وعصر جديد تمثلاً للأفغاني وروحه؟ بل إن العكس هو الصحيح. إن منطق العقل يقول: إن إغفال التربة التي نبت فيها النص، وإهمال الزمان والمكان اللذين أوجداه لا بد أن يدخل عليه الحيف والتزوير.

إن ما يسمى «القراءة الجديدة» يعني - بصريح العبارة- إلغاء دلالة النص لتحل محلها دلالة القراءة التي يسقطها القارئ عليه. ويشير علي حرب - وهو من أكبر المتحمسين لهذه البدعة الجديدة - إلى ذلك بقوله في كتابه «نقد النص»: إن «القراءة التي تقول ما يريد المؤلف قوله فلا مبرر لها أصلاً، لأن الأصل هو أولى منها، وما يغني عنها إلا إذا كانت القراءة تدعي أساساً أنها تقول ما لم يحسن المؤلف قوله، وفي هذه الحالة تغني القراءة عن النص، وتصبح أولى منه..».

وهكذا - بهذه البساطة - يصادر القارئ رأي المؤلف، ويُمتهن هذا المؤلف امتهاناً لا مثيل له في التاريخ، إذ يحكم عليه بالموت، أو يقول القارئ - باسمه - ما يريد، ويُنطقه بما يشاء.

مدير التحرير